



إسهامات الشيخ... (لتهمة)

التي ستعرضه في عمله المقبل، وتتيح له تجاوز العقبات التي ظهرت له أو ستظهر فيما بعد.

ومما عمق لديه الخبرة بقضايا المصطلح وظواهره أنه لم يكتف بالدراسة، بل انخرط في عالم التدريس والإشراف في هذا المجال، بحيث إنه أشرف على عشرات البحوث في مستوى شهادة الإجازة واستكمال الدروس والدراسات المعمقة، وما إلى ذلك، همت الاشتغال بالمصطلحات الشرعية في كتب الفقه والأصول والحديث: إحصاء وتصنيفا، وتقديرا لمزنتها - المصطلحات- واستخراجا للتعريفات وتركيبا لأطرافها المتناثرة في أبواب العلم، وبيانا لأنواعها وخصائصها، ثم العمل بعد ذلك على نقد الحد المنطقي. فكان رحمه الله يبحث بهذا العمل على بلورة نظرية خاصة بالدراسات المصطلحية في العلوم الشرعية.

ولقد يسر الله أن رزقه لما كان مدرسا بكلية الآداب بالمحمدية، ووجدت أنه حظي بحب منقطع النظير من لدن طلابه، وأنه عمق في عقولهم ووعىهم الحس المصطلحي إلى حد بعيد، وذلك واضح في البحوث التي أشرف عليها وهي بالعشرات إلى حد أنها لم تترك مؤلفا مشهورا في الفقه والأصول إلا تم إحصاء مصطلحاته وتصنيفها، وبيان المعرف منها، تم التعليق على ذلك مجملا ببيان القيمة المصطلحية وطبيعة المصطلح ونوعية التعريف الخ ...

ولما انتقل إلى مكناس الزينونة صار له شأن آخر في حياته العلمية إذ توسعت دائرة الإشراف وكثرت إسهاماته بالمشاركة في الندوات العلمية، والمناقشات للأطروحات الجامعية وما إلى ذلك، فكان في هذا وغيره ينطق بعلم عزيز تأصيلا للدراسة المصطلحية وأجرأة لما ورد منها عاما أو مجملا، ونقدا لما ظهر له نقده من خلال ما كتبه هو أصالة أو كتبه غيره في هذا المجال.

وأذكر أنه رحمه الله لما أعطي الكلمة عند مناقشة الأطروحة التي تقدمت بها سنة 2004 تحت عنوان (المصطلح الأصولي في كتاب المعتمد لأبي الحسين البصري المعتزلي) تعرض لنقد العمل نقدا بناء وقال فيما قاله لي: لقد بنيت بأحجار بنيت بها، ولو قدر لي أن أكتب مرة أخرى في الموضوع لراجعت الكثير منه، وتخلت عن الكثير. هكذا كان الرجل رحمه الله دائما في التجديد، ودائما في المراجعات وخاصة في قضايا المنهج.

المرحلة الرابعة: من القلق المنهجي إلى

الانفراج والرشد.

معلوم أن الدراسات المصطلحية قلق كلها، ومعاناة كلها، وعقبات كلها، ولكنها عذبة مذاق موصلة إلى القصد مبلغة إلى الهدى والرشد، ولكن لمن استجمع شروطها وأخذ بأسبابها، وابتعد عن موانعها.

لقد كان رحمه الله لا يبرح مكانا حتى يحدث فيه عن معضلة المنهج في فهم وتقويم التراث، ولم يترك فرصة مناسبة إلا أثار الإشكال مع طلابه وزملائه، وكان رحمه الله يهتدي إلى الحلول من خلال النظر في المنهج.

ترجع البداية الحقيقية لهذه المرحلة إلى تسجيل بحثه لنيل شهادة الدكتوراه تحت عنوان: (المصطلح الأصولي عند الشاطبي)، وذلك في أوائل 1991م تحت نظر وعين أستاذه المشرف مرة أخرى،

وبذلك تحتم عليه رحمه الله إخضاع مجمل التراث الأصولي عند الشاطبي للبحث المصطلحي كما يقتضيه العنوان، فتم بذلك إحصاء المصطلحات الأصولية الواردة بكل من كتاب الاعتصام ومجموع فتاواه التي جمعها الدكتور محمد أبو الألفان، ثم كتاب الإفادات والإنشادات. أما كتاب الموافقات فقد كانت مادته محصاة من قبل.

لقد عبر رحمه الله عن أهم المشكلات المنهجية التي اعترضته أثناء البحث الجديد، وبين أسباب ذلك وعلله، وأشار إلى طريقة تجاوزهها، ولنصغي إليه يحكي هذه التجربة: "وقد اقتضى حل هذه المشكلات المنهجية وأشباهاها نظرا طويلا في قضية المنهج عموما، ومنهج الدراسة المصطلحية خصوصا! وأذكر أنني قضيت في ذلك ما يقرب من سنتين منذ تسجيل هذا البحث، أقرأ في كتب (المنهج العلمية) ما شاء الله، عربيها وفرنسيها، مما تيسر الوصول إليه. وقد قادني ذلك إلى قراءة كتب - ما كنت أفكر في قراءتها من قبل - في علوم حديثة، لها صلة ما بمنهج الدراسة المصطلحية، كالدراسات اللسانية والمعجمية والسيميائية ونحوها.

ثم كان - قبل ذلك وبعده - لظهور أطروحة الدكتور الشهيد البوشيخي (النقد

بما في العبارة من معنى (3).

أما حظ هذا الكتاب من الدراسات المصطلحية فإن المؤلف رحمه الله خصص المبحث الثاني من الفصل الرابع لهذا الغرض، فأفرغ فيه عصارة تجربته حينئذ مبرزاً أهمية الدراسة المصطلحية، وكيف تتم دراسة مصطلحات التراث في أفق إيجاد مشروع المعجم التاريخي وهو الحلم الذي كان لا يفارقه، فبين شروط القوة والأمانة اللازم توفرها في الأجيال الحاملة لهم المشروع، والمواصفات التي ينبغي توفرها في المؤلفات المدروسة، وذلك وفقا لسلم الأولويات، ثم عرج رحمه الله على المنهج العلمي للدراسة المصطلحية المبني على خطوتي الإحصاء والدراسة.

ومما يجلي شغف الرجل بالمصطلحية، فإنه على عادته لم يغفل أن يذيل كتابه بملحق مصطلحي، عبارة عن معجم شارح لأهم المصطلحات المنهجية الواردة في الكتاب. أما مجموع ما شرحه في 127 مصطلحا صنفها بناء على ترتيب موادها اللغوية، ثم رتبها بناء على الألفبائية داخل كل مادة.

وخلاصة الأمر، فإنه يمكن أن نقول بأن رحلته في البحث عن المنهج أفضت به إلى الاهتمام للتي هي أقوم في الدراسة المصطلحية، وعلى أساس ذلك أنجز عمله

معلوم أن الدراسات المصطلحية قلق كلها، ومعاناة كلها، وعقبات كلها.

ولكنها عذبة مذاق موصلة إلى القصد مبلغة إلى الهدى والرشد، ولكن لمن استجمع

شروطها وأخذ بأسبابها، وابتعد عن موانعها. لقد كان رحمه الله لا يبرح مكانا حتى يحدث فيه عن

معضلة المنهج في فهم وتقويم التراث، ولم يترك فرصة مناسبة إلا أثار الإشكال مع طلابه وزملائه، وكان رحمه الله يهتدي إلى الحلول من خلال النظر في المنهج. إن ما استندته منه رحمه الله

قوله: إن أول خطوة في درب التجديد قتل الماضي بحثا

الكبير (المصطلح الأصولي عند الشاطبي)، والذي أظهر فيه الجدة والتجديد والإبداع والابتكار، مما لم يسبق إليه على الإطلاق.

المرحلة الخامسة: مرحلة التجديد

والإبداع في المنهج:

إن مما استفدته منه رحمه الله قوله: إن أول خطوة في درب التجديد قتل الماضي بحثا، وهذه القولة قد تجلت في تجربته المصطلحية المتفردة، إنه فعلا قتل الموجود بحثا وتدقيقا، فتسنى له أن يجدد، ليس في هذا الميدان فحسب، بل في كل اهتماماته ومشاريعه، إنه جدد حقا وأبدع صدقا، فنعم المجدد هو ونعم المبدع هو.

وفي مجال المصطلحية فإن رحلته الشاقة والطويلة أثمرت وجوها من التجديد في المنهج الوصفي - الذي وضعه رائده الأستاذ الشهيد البوشيخي حفظه الله ورعا - وهي تهتم ما يكسبه هذا المنهج من خصوصيات وتكييفات عندما ينزل على بيئة المصطلح الشرعي، حيث يلبس لبوسها ويتزيا بزيتها ويتحلل بمضامينها ومقاصدها. ويمكن إجمال ما أدرجه في هذا المنهج - الوصفي - في خاصيتين وذلك بحسب ما صرح به رحمه الله في مقدمة أطروحته.

الأولى: قيام الوصف فيه على التحليل والتعليل، بدل العرض والتقرير.

الثانية: اعتماد الدراسة الشمولية وذلك من خلال اعتماد وحدة (الأسرة الاصطلاحية) بدل (التمثيلية) الانتقائية... فكان كل ذلك مركزا في دراسة المصطلح من خلال (شجرة مفهومية) مبنية على نموذج (الأسرة الاصطلاحية) للمصطلح المدروس، يكون هو فيها أصلا لعدة مصطلحات.

ولقد خصص رحمه الله للحديث عن نظره واجتهاده في الدراسة المصطلحية: التمهيد الذي هو عبارة عن تأصيل منهجي للبحث كله بث فيه حصيلة تجربته في مجال الدراسة المصطلحية، محددا موقعها في الدراسات اللغوية الحديثة، ثم بين مناهجها المطبقة على التراث لحد الآن، ثم فصل خصوصيات المنهج الوصفي عندما ينزل على المصطلح الشرعي، وما يحصل جراء ذلك من خصائص وأحوال، وهذا عمل لم يطرق قبل، كما صرح بذلك في المقدمة، فقال رحمه الله "وأحسب أن هذا ابتداء متواضع لما يعرف في (علم المصطلح) ب (النظرية الخاصة) في هذا المجال، أعني خصوص أصول الفقه. فلقد الساعة مازال الكلام عن المصطلح التراثي والدراسات المصطلحية عاما من حيث النظر. ولما تدرس مناهجها في علاقتها بخصوص مجالات علمية محددة بعينها(4).

أما بخصوص العرض المنهجي لأطروحته التي نوقشت سنة 1998م - 1999م فإنه جاء على الشكل الآتي:

بعد المقدمة والتمهيد التي تضمنتا مادة اصطلاحية في غاية النفاسة والأهمية، فإنه جعل البحث في قسمين كبيرين:

القسم الأول: في طبيعة المصطلح الأصولي عند الشاطبي وهو قسم نظري صنفه في ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: في إصلاحية التجديد المصطلحي عند الشاطبي.

- الفصل الثاني: في مركزية المصطلح في الفكر الأصولي عند الشاطبي.

- الفصل الثالث: في نظرية التعريف الأصولي ونقد الحد المنطقي عند الشاطبي.

أما القسم الثاني: فهو المعجم: وهو مجموع ما درسه من مصطلحات وفق المنهج المختار اعتمادا على نظام الأسرة الاصطلاحية، بحيث نسق رحمه الله المصطلح الأصولي الشاطبي في ثلاثة مصطلحات كبرى عبارة عن كليات جعلها في ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: في مصطلح الأصول.

- الفصل الثاني: في مصطلح الاجتهاد.

- الفصل الثالث: في مصطلح المال.

هذا وقد كان مجمل ما درسه من مصطلحات بالإضافة إلى الأهميات الكليات: اثني عشرة ومائة مصطلح (112) يدخل في ذلك ما ورد فرعا أو ضميما أو مشتقا أو نحو ذلك مما جاء مشجرا ضمن المصطلحات الأهميات.

والذي نجد الإشارة إليه ونحن نذكر إسهامات هذا الرجل العظيم في الدراسات المصطلحية، أنه أشرف على عشرات الأطروحات الجامعية في هذا المجال وغيره، وشارك في عشرات المناقشات العلمية، فكان رحمه الله يثير قضايا في المصطلحية والمنهج بشكل مستفيض، وأنا على علم أنه لو تم تجميعها وتدوينها وتصنيفها لأثمرت كتابا مهما في هذا الباب.

والله أسأل أن يتغمد الفقيد برحمته الواسعة وأن يجعل له نورا في قبره وأن يبده دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله وأن يجعله في جنة الخلد وأن ينفعنا بعلمه ولا يحرمنا أجره ولا يفتنا بعده، ويغفر لنا وله أمين والحمد لله رب العالمين.

- أنظر المصطلح الأصولي عند الشاطبي،

الدكتور فريد الأنصاري ص 15

- المصطلح الأصولي عند الشاطبي، الدكتور

فريد الأنصاري ص 20

- إبداعات البحث في العلوم الشرعية محاولة

في التأصيل المنهجي ص 09

- المرجع نفسه ص 18

- المصطلح الأصولي عند الشاطبي، الدكتور

فريد الأنصاري ص 23